

مشكلة عدم الزواج

هل لها وجود في مصر ؟

يخشى دعاة الإصلاح أن تكون قد واجهنا من المشكلات الاجتماعية ما يسمى مشكلة عدم الزواج ، وهؤلاء الدعاة يستعملون من الحكمة ما يسمى انقاء الشر قبل وقوعه ، فإن دلائل هذه المشكلة لا تكاد تتوفر بين أيديهم ، أو هي لم تتوفر على نحو يجعل خطر المشكلة قائما الى جانبها .

والواقع أننا لم نصل بالانصراف عن الزواج الى الحد الذي يصح أن يقال معه إننا أمة مصابة من الأمراض الاجتماعية بهذا المرض الوبيل ، وإذا شئنا أن نخبر هذا الواقع لنرى مكان الحقيقة في صورته الثابتة فليس أيسر من أن نستحضر في أذهاننا هذه الصور :

فأولا — لا توجد في بلاد الريف المصري مشكلة عدم الزواج ولا يكاد أهلها يعرفونها .

وثانيا — لا توجد هذه المشكلة بين الطبقات الدنيا من عامة أهل المدن ولا بين الكثرة الغالبة من الطبقات الوسطى كذلك .

وثالثا — تبدو هذه المشكلة متدرجة في طريق الشروع بين خاصة أهل المدن ممن غرهم الانسحاب الى الطبقة العليا ، كما تبدو قريبة من الشمول بين أصحاب الأطماع الذليلة من الشبان وكذلك بين أولئك الذين توهموا أن الصيد من الطريق يغنيهم عن الحلال الطيب في البيت الشريف ، والآخريين الذين عادت بهم مشاهد الأبصار ومسموعات الآذان الى سوء الظن بأكثر من يرون من بنات حواء .

إذن لا مشكلة عندنا لعدم الزواج ، ولكنها ظاهرة من ظواهر سوء حصرها حسن الظن بين حدين لا يبلغ البعد بينهما مد البصر ، ولكن يبقى بعد الاطمئنان على سلامة كياننا الاجتماعي من هذا الداء أن نعرف ما هي أسباب هذه الظاهرة المحصورة بين حديها .

تختلف الأسباب التي صرفت الشبان من الأصناف الثلاثة عن الزواج باختلاف أهدافهم منه ، فبعضهم يريدون أن يحدوا في الزواج أقرب طريق إلى الفوز بمستقبل يؤيدهم إلى الغنى والجاه في غمضة عين ، وهم لا يروون هذه الطريقة إلا أن يصهرروا إلى قوم لهم من الغنى الواسع أو السلطان المطاع جاء غريص ونقوذ أمضى من القضاء ، وهم في ذلك لا يلتفتون إلى ما يوجب الشرع والعرف من التكافؤ بين الأزواج في مختلف مراتب الحياة ، فإن أحدهم لا يعنيه أن تكون الزوجة التي يعلم بها ويقضى العمر في انتظارها أعلى منه نسباً أو مالا أو أن يكون أهلها أرفع من أهله منزلة وأوسع منهم جاهاً ، بل لا يعنيه من صدق ما يحسه في نفسه كلما حدثته نفسه حديث الطمع في مثل هذه الزوجة أنه عائد لا محالة بخيبة الأمل حين لا هي ترضى ولا أهلها يرضون .

وبعضهم لا يريدون أن يفهموا الزواج إلا على أنه وسيلة الاستمتاع بين رجل وامرأة ، كما لا يريدون أن يفهموا البيت والولد وحياة الأسرة إلا على أنها تكاليف مضنية ومشغل ملهية وقيود تردهم عن سعة الفساد إلى ضيق الاستقامة أو إلى ضيق المطالبة بالاستقامة .

وبعضهم يخافون من عواقب الزواج ما يخافه المجترئ على إرادة الله من الغيب المحجوب ، ويهابون من تكاليف العيش مع الزوجة والأولاد ما يهابه اليأس من رحمة الله ومن رزقه ، أو ما يهابه الجبان الذي يعرف في نفسه قلة الأقدام وعدم الاحتمال .

وهؤلاء جميعاً يعملون من أسباب العلة ما تتحمله الإنثريات في الجانب الآخر .

فلولا أن كل صياد يجد صيده بسهولة لما وجدنا شاباً يغنيه صيد الطريق في الحداثق العامة وعلى أبواب المتاجر أو في رحاب المسارح والملاهي أو من الشرفات والمنافذ في بيوت الحران عن الزوجة التي لا تحل له إلا بكلمة الله ولا ينالها إلا مع العزة والشرف .

ولولا ما تراه العيون في وضوح النهار وتحت جنح الليل ، وما تسمعه الأذان من أحاديث الهوى واللعب ، وما تسجله دفاتر التحقيق في دور البوليس والقضاء من وقائع الفتنة ومزائق السقوط ، وما لا تزال صحف الأخبار مستفيضة به حتى لا يتهى في صباح ولا يفرغ في مساء ، لولا كل ذلك لما انقبض شاب حريص على شرفه عن الزواج خشية أن يقع فيما يحذره .

ولولا ما يغري الطامعين من قيام الزواج بين المغامرات من بنات الأسر الكبيرة ومن يتخذنهم أزواجا بسنة التليش والانسباب لا بسنة الشرف والعقل ، وقد يكون أحدهم خادماً أو سائق مركبة أو أعلى من ذلك قليلاً أو كثيراً — لما تجاوز طامع حده ولا رأينا أحداً يجعل الزواج وسيلة ربح وبضاعة سوق ومربحاً تمشح فيه هذه البضاعة لا غاية لعصمة النفس وطيب الحياة .

ولكن فريقاً آخر غير هؤلاء يفهمون الزواج كما يجب أن يفهم ويطلبون منه ما يجب أن يتوفر فيه ، ثم هم لا ياتمنون الزواج في هذه الأيام على شيء من ذلك ، لأنهم يخافون على أنفسهم مصارع الهمة إذا صبروا عليه والصبر فوق طاقتهم كما يخافون على أنفسهم خيبة الأمل وسوء التجربة إذا لم يستطيعوا هذا الصبر ، وأولئك هم الذين صدقت معرفتهم للحياة بما توافر لهم من علم وفهم ولم تحبهم سلامة الإدراك لما تتعرض له الحياة الزوجية من تفكك وانحلال ، فهم كلما طلبوا في الزوجة حسن الفهم للحياة وصدق الأمانة للزوج أجابتهم ظواهر الحال أنهم قد يحدون الأمانة ولا يحدون الفهم وقد يحدون الفهم ولا يحدون الأمانة ، وإلى هنا يتوقف بهم الشك دون اليقين ثم لا يتمكنون من هذا الموقف إلا إلى عدم الزواج .

وهذه الوجوه التي بسطانها للسألة جديرة أن تناو لها يد الإصلاح بما يشتمن علاجها قبل أن يترانى بها الزمن فتتسع ونفشو ، ثم نفاجا منها بما يصح يومئذ أن يسمى مشكلة عدم الزواج ، أما هذا العلاج فقد اتخذت وزارة الشؤون الاجتماعية أسبابه ، وستعالج كل وجه بدوائه الخاص ، ولكنها مع ذلك ترجو كل أحد أن لا ينسى أن أنفع العلاج ما ينجى من ناحية المريض ، فكل ما في يد الطبيب أن يعطى الدواء بعد معرفة الداء ، أما قوة الاحتمال حتى يفعل الدواء فعله ، وأما الامتناع عما يفسد العلاج ويضاعف العلة ، فذلك شأن المريض نفسه ، وهو الشأن الأكبر في طلب السلامة ورجاء العافية .